مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

آدَاب طَالِبِ الْعِلْمِ

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٦- تَرْكُ الْعِشْرَةِ مَا أَمْكَنَ، وَاخْتِيَارُ الصَّاحِبِ وَالرَّفِيقِ

تَنَازَعَ النَّاسُ قَدِيمًا فِي مَسْأَلَةِ الْخُلْطَةِ وَالْعُزْلَةِ، فَاخْتَارَ قَوْمٌ جَانِبَ الْخُلْطَةِ مُطْلَقًا وَرَجَّحُوهُ، وَاخْتَارَ قَوْمٌ جَانِبَ الْعُزْلَةِ مُطْلَقًا وَرَجَّحُوهُ، وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا.

وَحَسَمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَمْرَ وَفَصَلَ فِي النِّزَاعِ، فَقَالَ: «هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ وَإِنْ كَانَ النَّاسُ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا، إمَّا نِزَاعًا كُلِّيًّا وَإِمَّا حَالِيًّا، فَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ: أَنَّ «الْخُلْطَةَ» تَارَة تَكُونُ وَاجِبَةً أَوْ مُسْتَحَبَّةً وَالشَّخْصُ الْوَاحِدُ قَدْ يَكُونُ مَأْمُورًا بِالْمُخَالَطَةِ تَارَةً، وَبِالِانْفِرَادِ تَارَةً.

وَجِمَاعُ ذَلِكَ: أَنَّ «الْمُخَالَطَةَ» إنْ كَانَ فِيهَا تَعَاوُنٌ عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ فَهِيَ مَنْهِيٌّ عَنْهَا، فَالِاخْتِلَاطُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي جِنْسِ الْعِبَادَاتِ، كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَصَلَاةِ الْكُسُوفِ وَالِاسْتِسْقَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ.

وَكَذَلِكَ الِاخْتِلَاطُ بِهِمْ فِي الْحَجِّ وَفِي غَزْوِ الْكُفَّارِ وَالْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ، وَإِنْ كَانَ أَئِمَّةُ ذَلِكَ فُجَّارًا، وَإِنْ كَانَ فِي تِلْكَ الْجَمَاعَاتِ فُجَّارٌ، وَكَذَلِكَ الِاجْتِمَاعُ الَّذِي يَزْدَادُ الْعَبْدُ بِهِ إِيمَانًا: إمَّا لِانْتِفَاعِهِ بِهِ، وَإِمَّا لِنَفْعِهِ لَهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَلَابُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ أَوْقَاتٍ يَنْفَرِدُ بِهَا بِنَفْسِهِ فِي دُعَائِهِ وَذِكْرِهِ وَصَلَاتِهِ وَتَفَكُّرِهِ وَمُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِ قَلْبِهِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، فَهَذِهِ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَىٰ انْفِرَادِهِ بِنَفْسِهِ، إِمَّا فِي بَيْتِهِ كَمَا قَالَ طَاوُوسُ: «نِعْمَ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتُهُ، يَكُفُّ فِيهَا بَصَرَهُ وَلِسَانَهُ»، وَإِمَّا فِي غَيْرِ بَيْتِهِ.

فَاخْتِيَارُ الْمُخَالَطَةِ مُطْلَقًا خَطَأٌ، وَاخْتِيَارُ الِانْفِرَادِ مُطْلَقًا خَطَأٌ، وَأَمَّا مِقْدَارُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ هَذَا وَهَذَا، وَمَا هُوَ الْأَصْلَحُ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، فَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ نَظَرٍ خَاصٍّ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَالْأَفْضَلُ يَتَنَوَّعُ «تَارَةً» بِحَسَبِ أَجْنَاسِ الْعِبَادَاتِ كَمَا أَنَّ جِنْسَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الْقِرَاءَةِ، وَجِنْسَ الْقِرَاءَةِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الذِّكْرِ، وَجِنْسَ الذِّكْرِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسِ الدُّعَاءِ.

وَ«تَارَةً» بِاخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ كَمَا أَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالذِّكْرَ وَالدُّعَاءَ بَعْدَ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ هُوَ الْمَشْرُوعُ دُونَ الصَّلَاةِ.

وَ«تَارَةً» بِاخْتِلَافِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرِ كَمَا أَنَّ الذِّكْرَ وَالدُّعَاءَ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ هُوَ الْمَشْرُوعُ دُونَ الْقِرَاءَةِ وَكَذَلِكَ الذِّكْرُ وَالدُّعَاءُ فِي الطَّوَافِ مَشْرُوعٌ بِالِاتِّفَاقِ وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ فِي الطَّوَافِ فَفِيهَا نِزَاعٌ مَعْرُوفٌ.

وَ«تَارَةً» بِاخْتِلَافِ الْأَمْكِنَةِ: كَمَا أَنَّ الْمَشْرُوعَ بِعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَعِنْدَ الْجِمَارِ وَعِنْدَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ هُوَ الذِّكْرُ وَالدُّعَاءُ دُونَ الصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ

لِلْوَارِدِ أَفْضَلُ مِنْ الصَّلَاةِ، وَالصَّلَاةُ لِلْمُقِيمِينَ بِمَكَّةَ أَفْضَلُ.

وَ«تَارَةً» بِاخْتِلَافِ مَرْتَبَةِ جِنْسِ الْعِبَادَةِ: فَالْجِهَادُ لِلرِّجَالِ أَفْضَلُ مِنْ الْحَجِّ وَأَمَّا النِّسَاءُ فَجِهَادُهُنَّ الْحَجُّ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَزَوِّجَةُ طَاعَتُهَا لِزَوْجِهَا أَفْضَلُ مِنْ طَاعَتِهَا لِأَبَوَيْهَا؛ بِخِلَافِ الْأَيِّمِ(١) فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ بِطَاعَةِ أَبَوَيْهَا.

وَ«تَارَةً» يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ قُدْرَةِ الْعَبْدِ وَعَجْزِهِ: فَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْعِبَادَاتِ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ مِمَّا يَعْجِزُ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ جِنْسُ الْمَعْجُوزِ عَنْهُ أَفْضَلَ وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ يَغْلُو فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَيَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ. فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَرَىٰ أَنَّ الْعَمَلَ إذَا كَانَ أَفْضَلَ فِي حَقِّهِ لِمُنَاسَبَةِ لَهُ وَلِكَوْنِهِ أَنْفَعَ لِقَلْبِهِ وَأَطْوَعَ لِرَبِّهِ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَفْضَلَ لِجَمِيعِ النَّاسِ وَيَأْمُرَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

وَاللهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَجَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ وَهَدْيًا لَهُمْ يَأْمُرُ كُلَّ إنْسَانٍ بِمَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُ فَعَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا لِلْمُسْلِمِينَ يَقْصِدُ لِكُلِّ إنْسَانٍ مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُ»(٢).

وَقَدْ كَانَ الْأَئِمَّةُ يُخَالِطُونَ النَّاسَ وَيُعَلِّمُونَهُمْ، وَهُمْ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ أَزْمَانِهِمْ أَنْ تَضِيعَ هَدَرًا أَوْ تَذْهَبَ سُدًى، وَكَانَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: أَصْبَرَ

---

(١) **الْأَيِّمُ مِنَ النِّسَاءِ**: الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا بِكْرًا كَانَتْ أَوْ ثَيِّبًا، **وَمِنَ الرِّجَالِ**: الَّذِي لَا امْرَأَةَ لَهُ: وَالْجَمْعُ أَيَامَىٰ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا أَزْوَاجَ لَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

(٢) «مَجْمُوعُ فَتَاوَىٰ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ» (١٠/ ٤٢٥).

النَّاسِ عَلَىٰ الْوَحْدَةِ مَعَ كَوْنِهِ إِمَامَ الدُّنْيَا فِي وَقْتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَرَجَ أَبِي إِلَىٰ طَرَسُوسَ مَاشِيًا، وَحَجَّ حَجَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا مَاشِيًا، وَكَانَ أَصْبَرَ النَّاسِ عَلَىٰ الْوَحْدَةِ، وَبِشْرٌ -هُوَ ابْنُ الْحَارِثِ الْحَافِي الزَّاهِدُ الْمَشْهُورُ- فِيمَا كَانَ فِيهِ لَمْ يَكُنْ يَصْبِرُ عَلَىٰ الْوَحْدَةِ، كَانَ يَخْرُجُ إِلَىٰ ذَا وَإِلَىٰ ذَا»(١).

فَالْعِشْرَةُ وَالْمُخَالَطَةُ لَا تَكُونُ لِمَيِّتِ الْقَلْبِ فَهُوَ قَاطِعُ الطَّرِيقِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ يَزِيدُ حَالُهُ فِي حَالِكَ وَعَمَلُهُ فِي عَمَلِكَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَيِّتُ الْقَلْبِ يُوحِشُكَ، فَاسْتَأْنِسْ بِغَيْبَتِهِ مَا أَمْكَنَكَ، فَإِنَّكَ لَا يُوحِشُكَ إِلَّا حُضُورُهُ عِنْدَكَ، فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِهِ فَأَعْطِهِ ظَاهِرَكَ، وَتَرَحَّلْ عَنْهُ بِقَلْبِكَ، وَفَارِقْهُ بِسِرِّكَ، وَلَا تُشْغَلَ بِهِ عَمَّا هُوَ أَوْلَىٰ بِكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَسْرَةَ كُلَّ الْحَسْرَةِ الِاشْتِغَالُ بِمَنْ لَا يَجُرُّ عَلَيْكَ الِاشْتِغَالُ بِهِ إِلَّا فَوْتَ نَصِيبِكَ وَحَظِّكَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَانْقِطَاعَكَ عَنْهُ، وَضَيَاعَ وَقْتِكَ عَلَيْكَ، وَضَعْفَ عَزِيمَتِكَ، وَتَفَرُّقَ هَمِّكَ.

فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِهَذَا -وَلَابُدَّ لَكَ مِنْهُ- فَعَامِلِ اللهَ تَعَالَىٰ فِيهِ، وَاحْتَسِبْ عَلَيْهِ مَا أَمْكَنَكَ، وَتَقَرَّبْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِمَرْضَاتِكَ فِيهِ، وَاجْعَلِ اجْتِمَاعَكَ بِهِ مَتْجَرًا لَكَ لَا تَجْعَلْهُ خَسَارَةً، وَكُنْ مَعَهُ كَرَجُلٍ سَائِرٍ فِي طَرِيقِهِ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ وَقَفَهُ عَنْ سَيْرِهِ،

(١) «تَرْجَمَةُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» (ص١٨).

فَاجْتَهِدْ أَنْ تَأْخُذَهُ مَعَكَ وَتَسِيرَ بِهِ فَتَحْمِلَهُ وَلَا يَحْمِلَكَ، فَإِنْ أَبَىٰ وَلَمْ يَكُنْ فِي سَيْرِهِ مَطْمَعٌ فَلَا تَقِفْ مَعَهُ وَدَعْهُ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ قَاطِعُ الطَّرِيقِ وَلَوْ كَانَ مَنْ كَانَ، فَانْجُ بِقَلْبِكَ، وَضِنَّ بِيَوْمِكَ وَلَيْلَتِكَ وَلَا تَغْرُبْ عَلَيْكَ الشَّمْسُ قَبْلَ وُصُولِ الْمَنْزِلَةِ فَتُؤْخَذَ»(١).

«فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتْرُكَ الْعِشْرَةَ فَإِنَّ تَرْكَهَا مِنْ أَهَمِّ مَا يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَلَاسِيَّمَا لِغَيْرِ الْجِنْسِ، وَخُصُوصًا لِمَنْ كَثُرَ لَعِبُهُ وَقَلَّتْ فِكْرَتُهُ، فَإِنَّ الطِّبَاعَ سَرَّاقَةٌ.

وَآفَةُ الْعِشْرَةِ ضَيَاعُ الْعُمُرِ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ، وَذَهَابُ الْمَالِ وَالْعِرْضِ إِنْ كَانَتْ لِغَيْرِ أَهْلِهِ.

وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَلَّا يُخَالِطَ إِلَّا مَنْ يُفِيدُهُ أَوْ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ، وَإِنْ تَعَرَّضَ لَصُحبَتِهِ مَنْ يَضِيعُ عُمُرُهُ مَعَهُ، وَلَا يُفِيدُهُ، وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ، وَلَا يُعِينُهُ عَلَىٰ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ، فَلْيَتَلَطَّفْ فِي قَطْعِ عِشْرَتِهِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ قَبْلَ تَمَكُّنِهَا، فَإِنَّ الْأُمُورَ إِذَا تَمَكَّنَتْ عَسُرَتْ إِزَالَتُهَا، وَمِنَ الْجَارِي عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْفُقَهَاءِ: الدَّفْعُ أَسْهَلُ مِنَ الرَّفْعِ.

فَإِنِ احْتَاجَ إِلَىٰ مَنْ يَصْحَبُهُ، فَلْيَكُنْ صَاحِبًا صَالِحًا دَيِّنًا تَقِيًّا وَرِعًا ذَكِيًّا كَثِيرَ الْخَيْرِ قَلِيلَ الشَّرِّ، حَسَنَ الْمُدَارَاةِ قَلِيلَ الْمُمَارَاةِ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ،

(١) «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٤٥).

وَإِنِ احْتَاجَ وَاسَاهُ، وَإِنْ ضَجِرَ صَبَّرَهُ»(١).

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلصُحْبَةِ كُلُّ أَحَدٍ، وَلَابُدَّ أَنْ يَتَمَيَّزَ الْمَصْحُوبُ بِصِفَاتٍ وَخِصَالٍ يُرْغَبُ بِسَبَبِهَا فِي صُحْبَتِهِ».

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيمَنْ تُؤْثَرُ صُحْبَتُهُ خَمْسُ خِصَالٍ:

أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا، حَسَنَ الْخُلُقِ، غَيْرَ فَاسِقٍ، وَلَا مُبْتَدِعٍ، وَلَا حَرِيصٍ عَلَىٰ الدُّنْيَا.

أَمَّا الْعَقْلُ: فَهُوَ رَأْسُ الْمَالِ، وَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ الْأَحْمَقِ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ، وَنَعْنِي بِالْعَاقِلِ الَّذِي يَفْهَمُ الْأُمُورَ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ، إِمَّا بِنَفْسِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ إِذَا أُفْهِمَ فَهِمَ.

وَأَمَّا حُسْنُ الْخُلُقِ: فَلَابُدَّ مِنْهُ، إِذْ رُبَّ عَاقِلٍ يَغْلِبُهُ غَضَبٌ أَوْ شَهْوَةٌ فَيُطِيعُ هَوَاهُ، فَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَتِهِ.

وَأَمَّا الْفَاسِقُ: فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ اللهَ، وَمَنْ لَا يَخَافُ اللهَ تَعَالَىٰ لَا تُؤْمَنُ غَائِلَتُهُ، وَلَا يُوثَقُ بِهِ.

وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ: فَيُخَافُ مِنْ صُحْبَتِهِ بِسِرَايَةِ بِدْعَتِهِ.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الصِّدْقِ تَعِشْ فِي أَكْنَافِهِمْ،

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص٨٣).

فَإِنَّهُمْ زِينَةٌ فِي الرَّخَاءِ وَعُدَّةٌ فِي الْبَلَاءِ، وَضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَىٰ أَحْسَنِهِ حَتَّىٰ يَجِيئَكَ مَا يَقْلِيكَ مِنْهُ، وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ، وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ إِلَّا الْأَمِينَ، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ يَخْشَىٰ اللهَ، وَلَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَتَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِ، وَلَا تُطْلِعْهُ عَلَىٰ سِرِّكَ، وَاسْتَشِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ تَعَالَىٰ.

قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ: بِئْسَ الصَّدِيقُ تَحْتَاجُ أَنْ تَقُولَ لَهُ: اذْكُرْنِي فِي دُعَائِكَ، وَأَنْ تَعِيشَ مَعَهُ بِالْمُدَارَاةِ أَوْ تَحْتَاجَ أَنْ تَعْتَذِرَ إِلَيْهِ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ لِأَصْحَابِهِ: أَيُدْخِلُ أَحَدُكُمْ يَدَهُ فِي كُمِّ أَخِيهِ فَيَأْخُذُ مِنْهُ مَا يُرِيدُ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَلَسْتُمْ بِإِخْوَانٍ كَمَا تَزْعُمُونَ.

وَلِلْأَخِ عَلَىٰ أَخِيهِ حُقُوقٌ بَيَانُهَا:

الْحَقُّ الْأَوَّلُ: قَضَاءُ الْحَاجَاتِ وَالْقِيَامُ بِهَا، وَذَلِكَ دَرَجَاتٌ:

أَدْنَاهَا: الْقِيَامُ بِالْحَاجَةِ عِنْدَ السُّؤَالِ وَالْقُدْرَةِ، وَلَكِنْ مَعَ الْبَشَاشَةِ وَالِاسْتِبْشَارِ.

وَأَوْسَطُهَا: الْقِيَامُ بِالْحَوَائِجِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ.

وَأَعْلَاهَا: تَقْدِيمُ حَوَائِجِهِ عَلَىٰ حَوَائِجِ نَفْسِهِ.

الْحَقُّ الثَّانِي: عَلَىٰ اللِّسَانِ بِالسُّكُوتِ تَارَةً وَالْكَلَامِ أُخْرَىٰ.

أَمَّا السُّكُوتُ: فَهُوَ أَنْ يَسْكُتَ عَنْ ذِكْرِ عُيُوبِهِ فِي حُضُورِهِ وَغَيْبَتِهِ، وَعَنِ الرَّدِّ عَلَيْهِ، وَمُمَارَاتِهِ وَمُنَاقَشَتِهِ، وَعَنِ السُّؤَالِ عَمَّا يَكْرَهُ ظُهُورُهُ مِنْ أَحْوَالِهِ.

وَلَا يَسْأَلُ إِذَا لَقِيَهُ: إِلَىٰ أَيْنَ؟ فَرُبَّمَا لَا يُرِيدُ إِعْلَامَهُ بِذَلِكَ، وَأَنْ يَكْتُمَ سِرَّهُ وَلَوْ بَعْدَ الْقَطِيعَةِ، وَلَا يَقْدَحَ فِي أَحِبَّائِهِ وَأَهْلِهِ، وَلَا يُبْلِغُهُ قَدْحَ غَيْرِهِ فِيهِ.

الْحَقُّ الثَّالِثُ: وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْكُتَ عَنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُهُ، إِلَّا إِذَا وَجَبَ عَلَيْهِ النُّطْقُ فِي أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ وَلَمْ يَجِدْ رُخْصَةً فِي السُّكُوتِ، فَإِنَّ مُوَاجَهَتَهُ بِذَلِكَ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ فِي الْمَعْنَىٰ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ طَلَبْتَ مُنَزَّهًا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ لَمْ تَجِدْ، وَمَنْ غَلَبَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَىٰ مَسَاوِئِهِ فَهُوَ الْغَايَةُ.

وَمَتَىٰ الْتَمَسْتَ مِنَ الْإِنْصَافِ مَا لَا تَسْمَحُ بِهِ دَخَلْتَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٢-٣].

وَاعْلَمْ أَنَّ أَشَدَّ الْأَسْبَابِ إِثَارَةً لِلْحِقْدِ وَالْحَسَدِ بَيْنَ الْإِخْوَانِ الْمُمَارَاةُ، وَلَا يَبْعَثُ عَلَيْهَا إِلَّا إِظْهَارُ التَّمَيُّزِ بِزِيَادَةِ الْفَضْلِ وَالْعَقْلِ وَاحْتِقَارِ الْمَرْدُودِ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَارَىٰ أَخَاهُ، فَقَدْ نَسَبَهُ إِلَىٰ الْجَهْلِ وَالْحُمْقِ، أَوْ إِلَىٰ الْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ عَنْ فَهْمِ الشَّيْءِ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ اسْتِحْقَارٌ، وَهُوَ يُوغِرُ الصَّدْرَ وَيُوجِبُ الْمُعَادَاةَ وَهُوَ ضِدُّ الْأُخُوَّةِ.

الْحَقُّ الرَّابِعُ: عَلَىٰ اللِّسَانِ بِالنُّطْقِ، فَإِنَّ الْأُخُوَّةَ كَمَا تَقْتَضِي السُّكُوتَ عَنِ الْمَكْرُوهِ، تَقْتَضِي النُّطْقَ بِالْمَحْبُوبِ، بَلْ هُوَ أَخَصُّ بِالْأُخُوَّةِ، لِأَنَّ مَنْ قَنَعَ بِالسُّكُوتِ صَحِبَ أَهْلَ الْقُبُورِ، وَإِنَّمَا يُرَادُ الْإِخْوَانُ لِيُسْتَفَادَ مِنْهُمْ لَا

لِيُتَخَلَّصَ مِنْهُمْ، لِأَنَّ السُّكُوتَ مَعْنَاهُ كَفُّ الْأَذَىٰ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَوَدَّدَ إِلَيْهِ بِلِسَانِهِ، وَيَتَفَقَّدَهُ فِي أَحْوَالِهِ، وَيَسْأَلَ عَمَّا عَرَضَ لَهُ، وَيُظْهِرَ شُغُلَ قَلْبِهِ بِسَبَبِهِ، وَيُبْدِيَ السُّرُورَ بِمَا يُسَرُّ بِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَدْعُوَهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا يَعْرِفُهُ مِنْ مَحَاسِنِ أَحْوَالِهِ عِنْدَ مَنْ يُؤْثِرُ الثَّنَاءَ عِنْدَهُ، وَكَذَلِكَ الثَّنَاءُ عَلَىٰ أَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ وَأَفْعَالِهِ، حَتَّىٰ فِي خُلُقِهِ وَعَقْلِهِ وَهَيْئَتِهِ وَخَطِّهِ وَتَصْنِيفِهِ مَا يَفْرَحُ بِهِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا كَذِبٍ.

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تُبْلِغَهُ ثَنَاءَ مَنْ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ مَعَ إِظْهَارِ الْفَرَحِ بِهِ، فَإِنَّ إِخْفَاءَ ذَلِكَ مَحْضُ الْحَسَدِ.

وَمِنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمُ وَالنَّصِيحَةُ، فَلَيْسَتْ حَاجَةُ أَخِيكَ إِلَىٰ الْعِلْمِ بِأَقَلَّ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَىٰ الْمَالِ، وَإِنْ كُنْتَ غَنِيًّا بِالْعِلْمِ فَوَاسِهِ وَأَرْشِدْهُ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نُصْحُكَ إِيَّاهُ سِرًّا، وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّوْبِيخِ وَالنَّصِيحَةِ الْإِعْلَانُ وَالْإِسْرَارُ، كَمَا أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُدَارَاةِ وَالْمُدَاهَنَةِ بِالْغَرَضِ الْبَاعِثِ عَلَىٰ الْإِغْضَاءِ، فَإِنْ أَغْضَيْتَ لِسَلَامَةِ دِينِكَ وَلِمَا تَرَىٰ فِيهِ إِصْلَاحَ أَخِيكَ بِالْإِغْضَاءِ، فَأَنْتَ مُدَارٍ، وَإِنْ أَغْضَيْتَ لِحَظِّ نَفْسِكَ وَاجْتِلَابِ شَهَوَاتِكَ وَسَلَامَةِ جَاهِكَ فَأَنْتَ مُدَاهِنٌ.

الْحَقُّ الْخَامِسُ: الدُّعَاءُ لِلْأَخِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ بِكُلِّ مَا تَدْعُو بِهِ لِنَفْسِكَ، وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ**

الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ؛ عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ».

وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو لِخَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ إِخْوَانِهِ يُسَمِّيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ.

وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَدْعُو فِي السَّحَرِ لِسِتَّةِ نَفَرٍ.

الْحَقُّ السَّادِسُ: الْوَفَاءُ وَالْإِخْلَاصُ.

وَمَعْنَىٰ الْوَفَاءِ: الثَّبَاتُ عَلَىٰ الْحُبِّ إِلَىٰ الْمَوْتِ، وَبَعْدَ مَوْتِ الْأَخِ مَعَ أَوْلَادِهِ وَأَصْدِقَائِهِ، وَمِنَ الْوَفَاءِ أَلَّا يَتَغَيَّرَ عَلَىٰ أَخِيهِ فِي التَّوَاضُعِ، وَإِنِ ارْتَفَعَ شَأْنُهُ وَاتَّسَعَتْ وِلَايَتُهُ، وَعَظُمَ جَاهُهُ.

وَمِنَ الْوَفَاءِ أَلَّا يَسْمَعَ بَلَاغَاتِ النَّاسِ عَلَىٰ صَدِيقِهِ، وَلَا يُصَادِقُ عَدُوَّ صَدِيقِهِ.

الْحَقُّ السَّابِعِ: التَّخْفِيفُ وَتَرْكُ التَّكَلُّفِ.

وَذَلِكَ أَلَّا يُكَلِّفَ أَخَاهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ، بَلْ يَرُوحُ سره عَنْ مَهَمَّاتِهِ وَحَاجَاتِهِ، وَلَا يَسْتَمِدُّ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ، وَلَا يُكَلِّفُهُ التَّفَقُّدَ لِأَحْوَالِهِ وَالْقِيَامَ بِحُقُوقِهِ وَالتَّوَاضُعَ لَهُ، بَلْ يَكُونُ قَصْدُهُ بِمَحَبَّتِهِ اللهَ وَحْدَهُ، وَتَمَامُ التَّخْفِيفِ طَيُّ بِسَاطِ الِاحْتِشَامِ حَتَّىٰ لَا يَسْتَحِيِي مِنْهُ فِيمَا لَا يَسْتَحِيِي فِيهِ مِنْ نَفْسِهِ.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: أَثْقَلُ إِخْوَانِي عَلَيَّ مَنْ يَتَكَلَّفُ لِي وَأَتَحَفَّظُ مِنْهُ،

وَأَخَفُّهُمْ عَلَي قَلْبِي مَنْ أَكُونُ مَعَهُ كَمَا أَكُونُ وَحْدِي[١].

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ اجْتِنَابِ مَنْ لَا تَلْزَمُهُ خُلْطَتُهُ شَرْعًا، حَتَّىٰ يَحْفَظَ زَمَانَهُ، وَيَرْعَىٰ قَلْبَهُ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ الصَّاحِبَ الَّذِي يُعِينُهُ عَلَىٰ أَمْرِ دِينِهِ وَآخِرَتِهِ، وَقَدْ قَالَ الْخَوَارِزْمِيُّ:

لَا تَصْحَبِ الْكَسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ ... كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ

عَدْوَىٰ الْبَلِيدِ إِلَىٰ الْجَلِيدِ سَرِيعَةٌ ... وَالْجَمْرُ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ

❁ ❁ ❁

(١) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص١٢٦-١٣٢) بِتَصَرُّفٍ.

٧- اخْتِيَارُ الْعِلْمِ وَالشَّيْخِ

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَ شَرَفَ الْعِلْمِ تَابِعٌ لِشَرَفِ مَعْلُومِهِ، لِوُثُوقِ النَّفْسِ بِأَدِلَّةِ وُجُودِهِ وَبَرَاهِينِهِ، وَلِشَدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ وَعِظَمِ النَّفْعِ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَجَلَّ مَعْلُومٍ وَأَعْظَمَهُ وَأَكْبَرَهُ فَهُو اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَقَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، الْمَوْصُوفُ بِالْكَمَالِ كُلِّهِ، الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، وَعِنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَتَشْبِيهٍ فِي كَمَالِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْعِلْمَ بِهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ أَجَلُّ الْعُلُومِ وَأَفْضَلُهَا، وَنِسْبَتُهُ إِلَىٰ سَائِرِ الْعُلُومِ كَنِسْبَةِ مَعْلُومِهِ إِلَىٰ سَائِرِ الْمَعْلُومَاتِ، وَكَما أَنَّ الْعِلْمَ بِهِ أَجَلُّ الْعُلُومِ وَأَشْرَفُهَا فَهُوَ أَصْلُهَا كُلِّهَا، كَمَا أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ فَهُوَ مُسْتَنِدٌ فِي وُجُودِهِ إِلَىٰ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَمُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ فِي تَحْقِيقِ ذَاتِهِ، وَكُلُّ عِلْمٍ فَهُوَ تَابِعٌ لِلْعِلْمِ بِهِ مُفْتَقِرٌ فِي تَحْقِيقِ ذَاتِهِ إِلَيْهِ، فَالْعِلْمُ بِهِ أَصْلُ كُلِّ عِلْمٍ، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَمُوجِدُهُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ كَمَالَ الْعِلْمِ بِالسَّبَبِ التَّامِّ، وَكَوْنَهُ تَامًّا يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِمُسَبَّبِهِ، كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِالْعِلَّةِ التَّامَّةِ وَمَعْرِفَةَ كَوْنِهَا عِلَّةً يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِمَعْلُولِهِ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ سِوَىٰ اللهِ فَهُوَ مُسْتَنِدٌ فِي وُجُودِهِ إِلَيْهِ اسْتِنَادَ الْمَصْنُوعِ

إِلَىٰ صَانِعِهِ، وَالْمَفْعُولِ إِلَىٰ فَاعِلِهِ.

فَالْعِلْمُ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِمَا سِوَاهُ، فَهُوَ فِي ذَاتِهِ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَصْلُ كُلِّ عِلْمٍ وَمَنْشَؤُهُ؛ فَمَنْ عَرَفَ اللهَ عَرَفَ مَا سِوَاهُ، وَمَنْ جَهِلَ رَبَّهُ فَهُوَ لِمَا سِوَاهُ أَجْهَلُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْآيَةَ تَجِدْ تَحْتَهَا مَعْنًىٰ شَرِيفًا عَظِيمًا، وَهُوَ أَنَّ مَنْ نَسِيَ رَبَّهُ أَنْسَاهُ ذَاتَهُ وَنَفْسَهُ، فَلَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَتَهُ وَلَا مَصَالِحَهُ، بَلْ نَسِيَ مَا بِهِ صَلَاحُهُ وَفَلَاحُهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، فَصَارَ مُعَطَّلًا مُهْمَلًا بِمَنْزِلَةِ الْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، بَلْ رُبَّما كَانَتِ الْأَنْعَامُ أَخْبَرَ بِمَصَالِحِهَا مِنْهُ لِبَقَائِهَا عَلَىٰ هُدَاهَا التَّامِّ الَّذِي أَعْطَاهَا إِيَّاهُ خَالِقُهَا، وَأَمَّا هَذَا فَخَرَجَ عَنْ فِطْرَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَنَسِيَ رَبَّهُ، فَأَنْسَاهُ نَفْسَهُ وَصِفَاتِهَا، وَمَا تَكْمُلُ بِهِ وَتَزْكُو بِهِ وَتَسْعَدُ بِهِ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ فَانْفَرَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَقَلْبُهُ، فَلَا الْتِفَاتَ لَهُ إِلَىٰ مَصَالِحِهِ وَكَمَالِهِ وَمَا تَزْكُو بِهِ نَفْسُهُ وَقَلْبُهُ، بَلْ هُوَ مُشَتَّتُ الْقَلْبِ مُضَيَّعُهُ، مُنْفَرِطُ الْأَمْرِ حَيْرَانُ، لَا يَهْتَدِي سَبِيلًا.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْعِلْمَ بِاللهِ أَصْلُ كُلِّ عِلْمٍ، وَهُوَ أَصْلُ عِلْمِ الْعَبْدِ بِسَعَادَتِهِ وَكَمَالِهِ وَمَصَالِحِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَالْجَهْلُ بِهِ مُسْتَلْزِمٌ لِلْجَهْلِ بِنَفْسِهِ وَمَصَالِحِهَا وَكَمَالِهَا وَمَا تَزْكُو بِهِ وَتُفْلِحُ بِهِ، فَالْعِلْمُ بِهِ سَعَادَةُ الْعَبْدِ، وَالْجَهْلُ بِهِ أَصْلُ شَقَاوَتِهِ.

وَلَا شَيْءَ أَطْيَبُ لِلْعَبْدِ وَلَا أَلَذُّ وَلَا أَهْنَأُ وَلَا أَنْعَمُ لِقَلْبِهِ وَعَيْشِهِ مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارِيهِ وَدَوَامِ ذِكْرِهِ، وَالسَّعْيِ فِي مَرْضَاتِهِ، وَهَذَا هُوَ الْكَمَالُ الَّذِي لَا كَمَالَ لِلْعَبْدِ بِدُونِهِ، وَلَهُ خُلِقَ الْخَلْقُ، وَلِأَجْلِهِ نَزَلَ الْوَحْيُ، وَأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ، وَقَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَوُجِدَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَلِأَجْلِهِ شُرِعَتِ الشَّرَائِعُ، وَوُضِعَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ، وَوَجَبَ حَجُّهُ عَلَىٰ النَّاسِ إِقَامَةً لِذِكْرِهِ الَّذي هُوَ مِنْ تَوَابِعِ مَحَبَّتِهِ وَالرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ، وَلِأَجْلِ هَذَا أُمِرَ بِالْجِهَادِ، وَضُرِبَتْ أَعْنَاقُ مَنْ أَبَاهُ وَآثَرَ غَيْرَهُ عَلَيْهِ، وَجُعِلَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ دَارُ الْهَوَانِ خَالِدًا مُخَلَّدًا.

وَعَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ أُسِّسَتِ الْمِلَّةُ، وَنُصِبَتِ الْقِبْلَةُ، وَهُوَ قُطْبُ رَحَىٰ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، الَّذِي مَدَارُهُمَا عَلَيْهِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ الدُّخُولِ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ بَابِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ الشَّيْءِ فَرْعٌ عَنِ الشُّعُورِ بِهِ، وَأَعْرَفُ الْخَلْقِ بِاللهِ أَشَدُّهُمْ حُبًّا لَهُ، فَكُلُّ مَنْ عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا زَهِدَ فِيهِمْ، فَالْعِلْمُ يَفْتَحُ هَذَا الْبَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ سِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ»(١).

قُلْتُ: فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَخْتَارَ الْبَدْءَ بِالَّذِي هُوَ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ وَآجِلِهِ، -أَعْنِي: الْعِلْمَ بِاللهِ ﷻ؛ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ- فَإِذَا انْضَبَطَ لَهُ هَذَا الْمِقْدَارُ مِنْ عِلْمٍ بِاللهِ ﷻ، كَانَ عَلَيْهِ الْأَخْذُ بِعِلْمَيِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ نَهْجِ صَدْرِ الْأُمَّةِ الْأَوَّلِ رضي الله عنهم، حَتَّىٰ يَصِحَّ لَهُ التَّلَقِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ» (١/ ٣١١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا كَانَ التَّلَقِّي عَنْهُ ﷺ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: نَوْعٍ بِوَسَاطَةٍ وَنَوْعٍ بِغَيْرِ وَسَاطَةٍ، وَكَانَ التَّلَقِّي بِلَا وَسَاطَةٍ حَظَّ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ حَازُوا قَصَبَاتِ السَّبْقِ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَىٰ الْأَمَدِ، فَلَا طَمَعَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بَعْدَهُمْ فِي اللَّحَاقِ، وَلَكِنَّ الْمُبرِّزَ مَنِ اتَّبَعَ صِرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمَ، وَاقْتَفَىٰ مِنْهَاجَهُمُ الْقَوِيمَ، وَالْمُتَخَلِّفَ مَنْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَذَلِكَ الْمُنْقَطِعُ التَّائِهُ فِي بَيْدَاءِ الْمَهَالِكِ وَالضَّلَالِ فَأَيُّ خَصْلَةِ خَيْرٍ لَمْ يَسْبِقُوا إِلَيْهَا؟! وَأَيُّ خُطَّةِ رُشْدٍ لَمْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا؟!

تَاللهِ لَقَدْ وَرَدُوا رَأْسَ الْمَاءِ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ عَذْبًا صَافِيًا زُلَالًا، وَأَيَّدُوا قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَدَعُوا لِأَحَدٍ بَعْدَهُمْ مَقَالًا، فَتَحُوا الْقُلُوبَ بِعَدْلِهِمْ بِالْقُرْآنِ وَالْإِيْمَانِ، وَالْقُرَىٰ بِالْجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَأَلْقَوْا إِلَىٰ التَّابِعِينَ مَا تَلَقَّوْهُ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ خَالِصًا صَافِيًا، وَكَانَ سَنَدُهُمْ فِيهِ عَنْ نَبِيِّهِمْ ﷺ عَنْ جِبْرِيلَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ سَنَدًا صَحِيحًا عَالِيًا، وَقَالُوا: هَذَا عَهْدُ نَبِيِّنَا إِلَيْنَا وَقَدْ عَهِدْنَا إِلَيْكُمْ، وَهَذِهِ وَصِيَّةُ رَبِّنَا وَفَرْضُهُ عَلَيْنَا وَهِيَ وَصِيَّتُهُ وَفَرْضُهُ عَلَيْكُمْ.

فَجَرَىٰ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِمُ الْقَوِيمِ، وَاقْتَفَوْا عَلَىٰ آثَارِهِمْ صِرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ سَلَكَ تَابِعُو التَّابِعِينَ هَذَا الْمَسْلَكَ الرَّشِيدَ، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]، وَكَانُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ قَبْلَهُمْ كَمَا قَالَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣ - ١٤].

ثُمَّ جَاءَتِ الْأَئِمَّةُ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْمُفَضَّلِ فِي إِحْدَىٰ الرِّوَايَتَيْنِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ وَعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، فَسَلَكُوا عَلَىٰ آثَارِهِمُ اقْتِصَاصًا، وَاقْتَبَسُوا هَذَا الْأَمْرَ عَنْ مِشْكَاتِهِمُ اقْتِبَاسًا، وَكَانَ دِينُ اللهِ سُبْحَانَهُ أَجَلَّ فِي صُدُورِهِمْ، وَأَعْظَمَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ أَنْ يُقَدِّمُوا عَلَيْهِ رَأْيًا مَعْقُولًا أَوْ تَقْلِيدًا أَوْ قِيَاسًا، فَطَارَ لَهُمُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، ثُمَّ سَارَ عَلَىٰ آثَارِهِمُ الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، وَدَرَجَ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِمُ الْمُوَفَّقُونَ مِنْ أَشْيَاعِهِمْ، زَاهِدِينَ فِي التَّعَقُّبِ لِلرِّجَالِ، وَاقِفِينَ مَعَ الْحُجَّةِ وَالِاسْتِدْلَالِ، يَسِيرُونَ مَعَ الْحَقِّ أَيْنَ سَارَتْ رَكَائِبُهُ، وَيَسْتَقِلُّونَ مَعَ الصَّوَابِ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ مَضَارِبُهُ، إِذَا بَدَا لَهُمُ الدَّلِيلُ بِأُخْذَتِهِ(١) طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا(٢)، وَإِذَا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ إِلَىٰ أَمْرٍ انْتَدَبُوا إِلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُونَهُ عَمَّا قَالَ بُرْهَانًا(٣)،

---

(١) **الْأُخْذَةُ**: رُقْيَةٌ كَالسِّحْرِ، وَهِيَ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ الدَّلِيلَ لَهُ عِنْدَهُمْ فِعْلٌ، كَفِعْلِ السِّحْرِ، فَلَا يُؤْثِرُونَ عَلَيْهِ شَيْئًا.

(٢) **زَرَافَاتٌ**: جَمَاعَاتٌ. وُحْدَانًا: جَمْعُ وَاحِدٍ، وَالْمَعْنَىٰ: ذَهَبُوا إِلَىٰ الدَّلِيلِ جَمِيعًا، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْحَمَاسِيِّ:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَىٰ نَاجِذَيْهِ لَهُمْ ... طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

(٣) مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْحَمَاسِيِّ صَاحِبِ الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَىٰ مَا قَالَ بُرْهَانَا

=

وَنُصُوصُهُ أَجَلُّ فِي صُدُورِهِمْ وَأَعْظَمُ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ أَنْ يُقَدِّمُوا عَلَيْهَا قَوْلَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، أَوْ يُعَارِضُوهَا بِرَأْيٍ أَوْ قِيَاسٍ»[1].

❁ ❁ ❁

=

انْظُرْ: «شَرْحَ الْمَرْزُوقِيِّ عَلَىٰ دِيوَانِ الْحَمَاسَةِ» (١/ ٢٧).

(١) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (١/ ٥).

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com